فكتور هوجو يرافع

عن ولده شارل هوجو

امام محكمة جنايات السين في ١١ يونيو سنة ١٨٥١
[illegible] الاعدام [illegible] احترامها
المادة [illegible] في القانون [illegible]

ترجمة الرافعة عن الافرنسية جريدة السياسة الاسبوعية لحضرة القاضي الفاضل [illegible] من البلاغة والحكمة [illegible] لا تحيها الا بحية وضرورة [illegible] نشرها في [illegible] الحقوق شاكرين للاستاذ [illegible] على الادب والحقوق

مقدمة المعرب

يقولون ان « المحامي » لا دخل له الا بالقانون وهذا خطأ لان « المحامي » الذي يحترم مهنته يجب ان يكون أكثر من ذلك عملاً ... يجب ان يكون [illegible] اجتماعياً « واسع المعاني » الكبيرة — ويجب ان يلم بالسياسة والادب . وعلم الاجتماع — وان لا يقتصر على طلب تطبيق القانون بل يجب فوق ذلك ان يراقب اثر هذا التطبيق في امته . ومشاعرها واغراضها ، واخلاقها وعاداتها ... [illegible] ان ينقد ويظهر الفساد او يمتدح ويعلن المحاسنة .

وقد وفق كاتب هذه السطور الى العثور على « مرافعة » من اعظم وابدع المرافعات التي قالها [illegible] الفكتور هوجو شاعر فرنسا الكبير التي كان قد ابن بها عن شارل هوجو احد [illegible] كان [illegible] وحدث ان شارل هوجو رأى ذات يوم في احدى ميادين [illegible] العمومية [illegible] الثالثة . وعلق محكوماً عليه بالاعدام [illegible] اعدامه ورأى المحكوم عليه [illegible] عن الصعود الى المقصلة [illegible] ما اتاه الفزع [illegible]

رأى ذلك شارل هوجو [illegible] من فظاعة هذا المنظر وكتب مقالة في جريدة [illegible] Evenement' [illegible] الاعدام انتقاداً شديداً . فما كان من النيابة العمومية سوى ان قدمته مع رئيس تحرير الجريدة المذكورة الى محكمة جنايات السين بتهمة [illegible] التحريض على عدم

احترام القوانين اتولى الموسيو فكتور هوجو الدفاع عنه في الجلسة التي عقدت في ١١ يوليو سنة ١٨٥١ وتراجع عنه تلك المرافعة البديعة التي هي جوهرة ثمينة في تاج الادب الفرنساوي وهذا نصها :

سادتي العضوين :

عند سماعي الكلمات الاولى التي فاه بها حضرة النائب العام اعتقدت لحظة انه سيترك الاتهام ولكن هذا الوهم لم يمكث طويلاً بالنيابة العمومية بعد ان عملت عدة مجهودات (ضاعت كلها عبثاً الكي تحصر وتحدد الموضوع اضطرت (بطبيعة هذا الوضوح ذاته الى التوسع في الشرح توسعاً اظهر كل وجهات المسألة التي كبرت بعد ذلك وعظمت على عكس ما كانت تود . ولكني لا اشكو من هذا .

وهاك اولاً هذه « التهمة » حالاً

ولكن قبل كل شيء — دعنا نتفق على كلمة واحدة « فالتعريف الحسن ينتج مناقشة حسنة » هذه الكلمة هي الاحترام الواجب للقانون Respect dû a le loi هي اساس التهمة اليوم هذه الكلمة كيف نشرحها وعلى ماذا تدل وما هو معناها الصحيح ؟

واضح (ويظهر لي ان النيابة العمومية تميل الى تأييد العكس) ان هذه العبارة لا يمكن ان تدل على منع انتقاد القانون بحجة احترامه . هذه العبارة لا تفيد اكثر من احترام تنفيذ القانون . ولا شيء اكثر من ذلك . انها تبيح النقد وتبيح التأنيب ولو كان شديداً كما نرى ذلك كل يوم حتى بالنسبة للدستور اعلى القوانين .

وهذه الكلمة تبيح الوصول الى السلطة التشريعية لالغاء قانون « خطر » مثلاً ، وتبيح اخيراً ان نقيم في وجه القوانين صعوبات ادبية . ولكنها لا تبيح ان نقيم في وجهها صعوبات مادية

دعوا القوانين تنفذ ، ولو كانت رديئة او غير عادلة او بربرية اشكوها الى الفكر واشكوها الى المشرع ، ولكن اتركوها تنفذ — قولوا انها رديئة او غير عادلة او بربرية ولكن اتركوها تنفذ ، تنتقد ولكن لا تحور هذا هو المعنى الحقيقي الوحيد لهذه العبارة « احترام القوانين » واذا كان الامر غير هذا سادتي تزولوا هذا

في تلك العملية الخطيرة عملية « انشاء القوانين » وهي عملية لها قسمان قسم الصحافة التي تنتقد التي تنصح ، التي تشير ، وقسم المشرع الذي يقرر ، في هذه العملية الخطيرة (كما اقول) يشل القسم الاول منها بدون النقد ويعطله هذا يشل القسم الثاني ولا يمكن بعد ذلك انتقاد القوانين وعندئذ لا يكون هناك اسباب لكي تغير او تعدل . وتصبح الجمعية التشريعية الوطنية بلا عمل ولا يبقى سوى ان تقفل

ولا اظن ان هذا هو المقصود (ضحك)

والآن بعد ان اوضحت هذه المسألة وازلت كل التباس في المعنى الحقيقي لعبارة « الاحترام الواجب للقوانين » ادخل في جوهر الموضوع

سادتي المحلفين :

يوجد بيكاريا يسميه « القوانين الاوروبية القديمة » قانون اراد كل الفلاسفة من منذ قرن

بكل المفكرين وكل الساسة الحقيقيين . القانون الذي كتب به التشريع العام الجميل

القانون الذي حمله انكلترا (١) الى [illegible] سنة ١٨٥١ . والذي حمله في انكلترا (٢) الذي [illegible]
تحمل الفئة على انكلترا [illegible] .

القانون لا يسري الا في هذا الجزء من الشعب الذي يجهل الجهل والبؤس . هو القانون
[illegible] ورجال من الحاكمين الاذكياء [illegible] في [illegible] .

القانون الذي [illegible] الملك فيليب (٣) الذي لا [illegible] الا باحترام الواجب الشرعي
والصداقة [illegible] من كان [illegible] في [illegible] القانون [illegible] « انقذ كرمته حول [illegible]
« القانون [illegible] للبير [illegible] يوحنا [illegible] المسيحي » .

القانون [illegible] مجلس النواب [illegible] مدة عشرين سنة في انكلترا سنة ١٨٣٠ وفي الجانب [illegible]
[illegible] فرنسا (٤) [illegible] من قوانينه .

القانون [illegible] منذ ثلاث سنوات [illegible] وقررت الجمعية الجمهورية الفرنسية
[illegible] على الربع الثالث [illegible] .

القانون لم تقرره جمعياتنا التشريعية في سنة [illegible] الا بعد تردد [illegible] .

القانون [illegible] الآن [illegible] بحث [illegible] من مجالس التشريع .
القانون [illegible] روسيا [illegible] .

هذا القانون الذي يقهر ضمير الانسان يظهر امامه كل يوم في عقوبة الاعدام

والآن يا سادتي . هذا القانون هو الذي [illegible] اليوم هذه الفقرة - الخصصنا الحقيقي - وقد
[illegible] من اجل ذلك [illegible] القانون [illegible] ([illegible] حركة حربية) . . .

انا اعترف اني منذ عشرين سنة اعتقدت مع المسيو ليون فوشر الذي في سنة ١٨٣٦ كتب
في مجلة باريس ما يأتي :

العقوبة لا تظهر الآن في الميادين العامة . [illegible] (الجميل العدل من عرضه) — اعتقدت
مع المسيو ليون فوشر هذا ان [illegible] احست [illegible]
[illegible] ولها تركت ميدان [illegible] الشمس الشرقية

(١) [illegible] ايطالي [illegible] رجال علم العقوبات la science pénitentiaire
ولد في ميلانو سنة ١٧٣٨ ومات في سنة ١٧٩٤ . وقد احدثت مؤلفاته تأثيراً كبيراً بهذا
اصلاح القوانين [illegible] Traité des délits et des peines
(٢) احد رجال السياسة الاشهار . وكان له شأن عظيم في استقلال امريكا وسعى لعقد
اتفاقات دولية مع الملك لويس السادس عشر . ومع الجمهورية الاولى في فرنسا . وعاش من سنة
١٧٠٦ الى سنة ١٧٩٠ .
(٣) ملك فرنسا لويس فيليب من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨
(٤) يقصد فرنسا

وحيث الجمهور المنتشر وما نعت تمرح في الشوارع . وما تعد ترى نفسها كانها (موضع فرجة) ثم الحذت تمثل ادوارها في الظلام . في سجن سان جاك او في مكان خال وليس امامه احد . ترآى لي انها بدأت تخجي نفسها وعملها على هذه الحياة (حركة جديدة) ولكن سادتي : لقد اخطأت والمسيو ليون لونتر الخطأ (ضحك) انها خرجت مرة اخرى من هذا الخباء الكاذب . . .

ان سجن سان جاك هو المقوط بالنسبة لها . والان يمكننا ان نراها في احد الايام تظهر في جزيرة في رابعة النهار وامام الجمهور في حفلة من الجلادين ورجال الحفظ والمنادين العموميين وربما يكون ذلك تحت نوافذ دار البلدية عينها . تلك النوافذ التي من اعلاها كان لبعضهم « الوقاحة » في ان يسبها وينتقدها في ٢٤ فبراير

ولكنها الان تستعد وتتقوى . انها تشعر ان الجسم المضطرب يحتاج لكي يتغذى (كما يقولون ويكررون) الى الرجوع الى كل التقاليد القديمة . وانها تقلد من هذه التقاليد انها تحتج على هؤلاء المصلحين المسمين بكاريا . فيكو . فيلانجيري . مونتسكيو تيرجو . فرانكلين المسمين لوي فيليب والمسمين بروجلي . وجيزو (ضحك) والذين تجاسروا ان ينتقدوا ويقولوا ان آلة قطع الرؤوس لا تتفق مع مجتمع كتابه الانجيل (تأثر) .

انها تشعر انها غير محترمة امام هؤلاء الخباليين الذين لا يعرفون النظام (ضحك) وتود ان يعجب بها الناس . انها تحتم ان يقدم لها الاحترام . الا انها تعلن انها اهينت . وتدخل « مدعيا مدنيا » وتطلب تعويضات (انشراح عام) .

الرئيس — ممنوع اظهار الاستحسان او الاستهجان . هذا الضحك غير مناسب في مثل هذه المسألة .

فكتور هوجو مستمراً — انها تملك الدم ، ولكن هذا لا يكفيها ؛ انها غير قانعة . انها تود ايضاً الغرامة والسجن (١)

سادتي المحلفين . في اليوم الذي اتوا الي بهذه الورقة المرسلة الى ابني . بهذا الاعلان بهذه القضية (كم نرى من العجائب في هذه الايام . . كم يجب علينا ان نعمل الاعتياد على ذلك) في هذا اليوم — يجب ان اعترف لحضراتكم — دهشت اندهاشاً عظيما وقلت . . . ماذا !!؟؟ هل وصلنا اذاً الى الحد ! . . امن اجل الدفاع عن العقل . عن التفكير . عن حرية الرأى . عن القانون الطبيعي نصبح في هذه الدرجة ويطلب منا ليس فقط الاحترام المادي (وهذا ما لا نتنازع فيه والذي هو واجب علينا والذي نقدمه فعلا) ولكن الاحترام المعنوي لهذه العقوبات التي تفتح في الضمير هوة سحيقة . التي يبهت لون كل من يفكر فيها . والتي يكرهها الدين . لهذه العقوبات التي تتجاسر ان تكون لا رجوع فيها بعد تنفيذها علما منها بانها عمياء . لهذه العقوبات التي تغمس اصبعها في الدم لانسان لتكتب هذا الامر (لا تقتل) . لهذه العقوبات التي لا دين لها والتي تجعل الانسان يشك في وجود الانسانية عندما توقع على المذنب . والتي تجعله يشك في وجود الله عندما توقع على البريء

(١) يقصد ان من ينتقد عقوبة الاعدام يعرض نفسه لان يتهم بانه « لا يحترم القوانين » وهذه جريمة يعاقب عليها القانون بالغرامة والحبس .

كلا ! كلا ! كلا ! نحن لسنا عند هـذه الدرجة ... كلا ! (تأثر عميق) ألت اني دهشت (مستطلعون ؟) كان الدهاشي علينا لانني اعتقدت ان «المذنب» الحقيقي في هذه القضية التي نحن بصددها — اذا كان ثمة مذنب — هو ليس ابني الا (حركة طويلة) ..

انا اصرح ان المذنب الحقيقي هو انا ، الذي من خمس وعشرين سنة حارب بكل الوسائل الممكنة تلك العقوبات التي لارجوع فيها بعد تنفيذها.

انا الذي من خمس وعشرين سنة دافعت في كل الفرص عن «حرمة حياة الانسان» — هذه الحرية الدفاع عن حرمة حياة الانسان ارتكبتها بمدة طويلة قبل ابني ، بدرجة اعظم من ابني . ما انا اشتكي نفسي في حضرة النائب العام . قد ارتكبتها بكل الظروف المشددة ومع سبق الاصرار ومع التصميم ، ومع العود (حركة)...

نعم .... وها انذا اصرح — لقد حاربت طول حياتي ما نراه الآن باقيا من تلك العقوبات الوحشية وهذا القانون العجوز الذي يقول «عين بعين وسن بسن» سأحاربه يا حضرات المحلفين طول حياتي . سأحاربه بمجهوداتي ككاتب وبكل صوتي كمشرع ها انا اصرح بذلك (وهنا مد الكتور هوجو ذراعيه الى تمثال السيد المسيح حيث آخر الصالة فوق المحكمة امام هذا الذي كان ضحية عقوبة الاعدام الموجود هنا الآن . والذي بنظر الينا ، والذي يسمعنا ، انا اقسم امام هـذا «الضحية» الذي من اجل التعليم الابدي للاجيال ترك نفسه وهو في ذاته «القانون الالهي» يسمو عن هذه الخشبة بأمر من «القانون الانساني» (انا اكرر ان ما كتبه ابني قد كتبه لأني لقنته اياه منذ صباه ... لانه في الوقت الذي هو ابني بالجسد هو ابني ايضا بالروح . لانه يود ان يسير على منهج والده ولكن ... ان يحوا انسان على منهج والده جريمة كبرى اعجب كثيرا ان يحاكم مرتكبها سادتي ...

اني اعترف ان الاتهام الذي نحن بصدده الآن يدهشني ...

كيف هذا ! ... أالآن مشؤوم يقدم الناس مناظر لا ادب فيها ، لا حياء . خطرة . مخلفة . متوحشة . يؤدي الى ان يجعل الناس متوحشين ... له سبع ايام مدة . انه مخيفة . والنتائج الضعيفة التي يحدثها هذا القانون تمنع الناس من ملاحظتها ، وملاحظاتهم من عدم احترامه ومن وكلاء المسؤولية امام القضاء .

وكم من مرافعة عدالة ؟ وكم من سحر ؟ ادت لتقبل مجالس النواب . ولتقبل المدارس انه لا يوجد بعد تحمل التقدم ، والمدع الفساد المقبول او التثبت نحو العدالة متمدينة ..

نعم ان الاوفق ان نقول انا من اهل آسيا . وانه كانت توجد هذه الدولة حتما في سناو ان تلك الدولة غير موجودة الآن . ولكم استطلعوا شيء آخر التشريع انه ليس الملكية اولكن بكل تأكيد هو ليس ايضا (الجمهورية) (ضحك)

الرئيس — اعيد ملاحظتي وارجو السكوت والا سأضطر الى اخلاء القاعة

الكتور هوجو — مستمرا . ولكن دعنا نطلق الوقائع ونقرب الفاظ التهمة الى الحقائق

سادتي الحاضرين : في اسبانيا كان نظام محاكم التفتيش هو القانون .... حسنا ... ولكن اعلموا انه لم يحصل هناك احترام لمحاكم التفتيش في فرنسا كان التعذيب هو القانون .. حسنا ولكن يجب ان نقول لكم ايضا انه لم يقدم الاحترام الى التعذيب . عقوبة قطع قبضة اليد كانت قانونا . ومع ذلك لم يحترم (الساطور) . وكانت عقوبة الكي بالنار قانونا ايضا . ولكن لم يحترم الكي بالنار ايضا . والجيلوتين هي قانون الآن .... حسنا .. وانا اقر انه حقيقة لم تحترم الجيلوتين اتعلم لماذا يا سيدي النائب العام ؟ سأقول لك .

لان الناس تريد ان ترمي بالجيلوتين الى هوة الكراهية التي رمت فيها باستحسان وموافقة الجنس البشري كله عقوبة الكي بالنار وعقوبة قطع اليد وعقوبة التعذيب ونظام محاكم التفتيش .

لان الناس تريد ان تمحي وتبعد من (قداسة العدل الجليلة المشرقة ذلك الوجه المشؤوم الذي يكفي لان يملأ هذه القداسة خوفا وهلعا ...... الجلاد .... (تأثر عميق) ...... آه .. لاننا نريد ذلك نتهم باننا نسبب اضطراب المجتمع

آه .... حقيقة ... نحن رجال خطرون جدا . اننا نود الغاء الجيلوتين ...... يا له من امر مخيف .

سادتي المحلفين ... أنتم اهل البلاد والحكام في امة حرة ومع ذلك يكفي ، ويجب ان نكلمكم وكما نكلم رجال السياسة من غير ان نخرج من موضوع قضيتنا . فكروا في الامر . وما دمنا نجتاز وقت الثورات استنتجوا ما تستنتجونه مما سأقوله لضمائركم .

لو كان لويس السادس عشر الغى عقوبة الاعدام لما سقط رأسه ولتحررت سنة ١٧٩٣ من الساطور وكان يمكن ان تنقص من التاريخ صفحة دموية . ولما وجد تاريخ ذلك اليوم المحزن ٢١ يناير . لانه من آلام الضمير العام .. سيقف وجه فرنسا .. وفي وجه العالم المتمدين كان في استطاعته ان يقيم الحصن لاجل ذلك . لاجل الرجل الذي كان يقال عنه عندئذ انه هو الذي الغاها (حركة طويلة) ...

يتهم رئيس تحرير جريدة الحادثة بانه لم يحترم القوانين . وانه لم يحترم عقوبة الاعدام .

سادتي .... فلنرفع انفسنا قليلا عن الكلام في « الامر » الحادث في سيره . ولنرفع انفسنا الى ذلك الذي هو اساس كل التشريع .. الى اعماق نفس الانسان الداخلية ..

السجل الشرعي » الذي كان نائبا عموميا على القوانين الحالية التي كانت موجودة في عصره هذه الصيحة المذكورة » ان قوانين عقوبتنا تتبع الحالات اللاشرعية . ونقلها لعصرهم » ولما جل « فلنرحم القضاة الذين حكموا الى « كلا » « الشريعة » .... آه لا تكلموني عن هؤلاء القضاة الذين يصفحون افراد ويعفون عنهم) ضحك) .... ولما قال وزير كولار قبل سنة في مجلس النواب ذاته بمناسبة الحادثة في احد القوانين .. « اذا سيئ هذا القانون الى اخالفه » .... لما كان هؤلاء المشرعون . هؤلاء القضاة هؤلاء الفلاسفة لما كان اصحاب هذه النفوس الكبيرة (...... المشهور ومنهج المحترم يقولون ذلك ماذا عملوا .. هل لم يحترموا القانون ؟ ... الذي لا

يمكن الا ان يكون « مؤقتاً محلياً » ... انا لا اعلم هل يجيب النائب العام ويقول : « جائز » ام لا يقول ذلك . ولكن الذي اعلمه انهم كانوا (الصدى المقدس لصوت قانون القوانين الا وهو ضمير المجتمع . هل اساؤوا الى العدالة ؟ ... عدالة الوقت الذي عاشوا فيه ... عدالة العدالة المتغيرة ... القابلة للحط ... لا لا ... ولكن الذي اعلمه انهم كانوا يطلبون العدالة الابدية (حركة طويلة) ...

سادتي الحاكمين .

ان حق انتقاد القوانين انتقادها بشدة وعلى الاخص قانون العقوبات الذي في استطاعته ان يطبع في بلادنا صفة « الوحشية »

ان حق الانتقاد هنا ، الكائن على عاتق « واجب الاصلاح » كالدور على عاتق العمل المراد اداؤه . ان هذا الحق الذي تملكه الكتاب كما تملكه المشرع هذا الحق اللازم هذا الحق الذي لا ينتهي ستعترفون به في حكمكم وستبرؤون المتهمين

ولكن النيابة تقول (وهذه حجتها الثانية) ان انتقاد جريدة (الحادثة) كان زائداً عن الحد وكان شديداً ، ولكن يا سادتي الحاكمين . انظروا له من قرب ، انظروا الى هذه الجريمة المزعومة التي ارتكبتها جريدة الحادثة ، الى هذا العمل المخيف . ماذا ؟؟ رجل .. محكوم عليه .. رجل بائس .. سيق ذات صباح الى احد ميادينا العامة .. هناك حيث المقصلة .. واراد ان يثور وان يناضل ، وان يرفض الموت ، يا اخي اعلم حق العلم ان سيقال لي « ولكن هذا قاتل » ولكن اعصوا قبض عليه اثنان من « المعذبين » وكانت يداه مقيدتين ورجلاه مقيدتين ولكنه ابعد عن « المعذبين » وهو نضال عجيب ولكن المحكوم عليه ان يشد بطوقه الخشب والحديد في السلم الموجود بالمقصلة ... استعد ... بالحبل ويسري الهلع في الشعب اما ... ... حقاً . وكان الذعر والخوف ... كان ... شاهدا ... ... من الشعب ... ولا ادري من اي ... عنيف)

حقيقة ان ... يجب ان ... هذا هو ... ولكن الرجل ... في المقصلة ... العذ... ... الثالثة ... المدية ... ساعة . ثلاثة ارباع ساعة ... ... يعدي ... الى ... ... مستمر) ان النيابة ... خمس وثلاثون دقيقة (اذا اردتم) ... هذا الوقت من النضال العجيب ... ... الذي لا ... من هذا العذاب — عذاب لكل الناس — ... عذاب الشعب وعذاب المحكوم عليه ... كان ... ولا ... هذا ... الى السجن ... الشعب ... ذلك الشعب الذي ... من ... ذلك الشعب

(... كلا هذا ... احد ... حكم عليه بالاعدام ... يعمل ... الذي امكنه ان يستصدر من ... كلا ...)

الرؤف ... لا ... له ... ان الرجل قد نجا . ولكن كلا ... حقيقة هزمت الجلوتين ولكنها المنتصرة ...

... كان ... في وسط جمهور متكدس ... وفي المساء اخذت جماعة من الجلادين ... وقيدوا ... طريقة ... مسحوقة ... وعند بدء الظلام اعادوه الى الميدان العام باكيا عاويا ... عن ... داعيا ... داعيا ... لانه امام الموت اصبح هذا الرجل ... وعند ذلك مرت رعشة في ضمير الكل لان « القتل باسم القانون ... اكثر من ذلك وقاحة واكثر من ذلك فبحكم شعر كل الناس ... من ... المدينة وفي نفس هذا الوقت خرجت صرخة من صدر احد ... من ... صرخة شفقة ، صرخة الام صرخة ... صرخة ... وهذه الصرخة التي ... عليها .

واما ... على حضراتكم تقولون (... » ان الحق معك » .. وتقولون ... ان ... معك »

هذا ... حضرات ...

... حضرة ... من غير مرارة — انت لا تدافع عن دعوى ... انت ... مع ... الاخلاق ... ان لك من الخصوم ... كل ... التي تقدمت في ... فرنسا منذ ستين سنة ... حرمة ... الطبقة غير المتعلمة مذهب الاصلاح ... الانتقام . ان لك من الخصوم كل ... كل ما ... الاحرى .

... انت ... اليوم شرفا عظيما لقد قضي لك ان تكون ... لاجل قضية الحقيقة المقدسة ... اليوم تدخل في ... من ... ومن اهل الحقيقة ... الانسانية ... انت حاضر الان ... (الاعدام) « كن غير مترددة ... كنت في حاجة الى ان اقول لك ... لا ... بلك في ... في ... في عقيدتك في الانسانية . ... اصلاح ... الكر ... (... عميق ومستمر) .